وابلغ من ذلك كلّهِ ان حياة الانسان نفسهِ متوقفة على عمل بعض انواع الجراثيم . فان الميكروبات التي تولّد الخامض النتريك والامونيا في التربة وتساعد النباتات على تمثيلها والميكروبات التي تسهل انحلال الفوصفات وتهيئهُ الفصفور الذي لا غنى عنهُ لحياة النبات والحيوان ليغتذيا بهِ والميكروبات التي تساعد على حلّ المواد النباتية والحيوانية الميتة — كلها تؤثر تأثيرًا عظيمًا في بقاء نوع الانسان ودوام رفاهتهِ

العصبيَّة

الانسان كائن حي من الكائنات الارضية ارتقى عمَّا حواليهِ من الحيوانات بما تليَّس بهِ من نفس ناطقة وقوة عاقلة ولكنهُ كان غير مستقل بالنسبة الى حاجياتهِ مفتقرًا الى غذاء تقوم بهِ حياتهُ ويعتاض بهِ عن الدقائق المتهدمة من جسمهِ محتاجًا الى درء المغالب ودفع المهاجم من الوحوش الكاسرة التي تنازعهُ في صيدهِ وتزحمهُ في معاشهِ مضطرًّا الى التعاون والتعاضد لتتضاعف قوتهُ ويكمل بأسهُ فيصد القوات المهاجمة والعصابات المزاحمة . بهذا تكاثفت افرادهُ وتضامت فكان بينها الفطن الأيّد والاتين الوهن والشريف والدنيء والضعيف والقوي على نسبة بين الافراد مختلفة باختلاف هذه الصفات وقربها وبعدها من الانسانية وصفاتها الحقة . ولا شك ان من اخذ منهُ بناصر الفضيلة وحُبّبت اليهِ الاخلاق الطاهرة الحافظة لكيان الانسانية المشيدة لدعائمها من قوة وفتوة وعفاف وحلم وكرم ومجد نبيل وشرف اصيل كان موضع الرجاء في النازلة ومحل الالتجاء في الشدة وهو موضع اهوائهم ومحل امالهم وهو الذي يدافعون عنهُ ويفدونهُ بانفسهم استدامةً لنفعهِ واستمدادًا لبركتهِ . أخذ بذلك محل العصبية منهم يدرأ عنهم شر المهاجم وكيد الكائد ويد الفاتك يوءُ الفهم في شتاتهم . وان النفس لتستهويها منافعها فتستطلع من ثنيّات المصالح مهويًّا ولا تزال كلما تكررت المنفعة قوي الميل حتى يستحكم ويصبح ملكة وهناك تطلب لهُ كل محمدة ومدحة فضاء لحق الشكر واداء لحق الارتياح واظهارًا لما يكنّهُ الضمير من المنة واعظام النعمة فتتأصل بذلك عصبية راسخة تنصرف لارادة المهوي ومنفعتهِ حتى اذا زادت في نشأتها ورسخت باصولها وانصرفت بكليتها سلبت ذا العصبية رشدهُ واخذت منهُ ثلّة من حريتهِ فيقيد نفسهُ بقيود الانقياد ويضع في عنقهِ نير التقليد فاذا رأى سنَّة سنَّها ذو العصبية سار فيها دون نظر ولا روية

واظهر مظاهر العصبية اذا وشجتها وشائج الرحم ووصلتها شوابك القربى القريبة وما يتلوها

والانسان بالطبع ينتصر لابيهِ لان بهِ حمايتهُ وهو محل نسبتهِ ومبدأ نشأتهِ فخرهُ مربوط بفخرهِ وشرفهُ سائر بشرفهِ يشينهُ ما يشينهُ ويعليهِ ما يعليهِ علقةٌ ماسة وفطرة واحدة فتنصرف بذلك عصبيتهُ لابيهِ واخوانهِ واعوانهِ فاذا انتج اولادهُ جرت اولادهُ مجراهُ وسارت في سنتهِ فتحفظ لهُ العصبية كما حفظها لابيهِ . يدلي هذا الخلق اليهم بالوراثة ويرتقي بالاعواز ولكن الخلقَ الموروث في الوارث اقل اثرًا من المورث فتكون عصبيتهم لابيهِ دون عصبيتهِ لهُ وهكذا كلما نزلت ضعفت بنسبة نزولها الى ان تشعبت العصابات النسبية

قد يتصرف الطمع بالنفس فتصبو الى من هو مقتدر على النفع حبًّا باستجلاب الخير من يدهِ وان لم تصل منهُ الى بلغة بعدُ ولكنها تطير باجنحة الطماعية وتدنو دنو الطير حام على قليب وهنالك يريها الطمع في المطموع بهِ اعتلاءهُ يورد الميل اعلى مراتبهِ ليريهُ استكمال نفعهِ بهِ

الانسان بانانيتهِ وطمعهِ يحب الاستئثار وجلب المنفعة فيعتدي على أخيهِ فان كان دونهُ حولاً وقوةً لجأ الى من هو أعلى كعبًا وأشد اسرًا ليفرج كربهُ ويزيل شدتهُ

قد يُغلق دون المرء وجه الرأي عند المشكلة وفي طروق النازلة فيلجأ الى رئيسهِ يأتمر بأمرهِ ويهتدي برأيهِ

امثال هذه المنافع تعلق قلب التابع بتبوعهِ وتخلص لهُ مودتهُ وتوحّد وجهة عصبيتهِ حتى اذا تأصلت وأصبحت ملكةً خرجت عن سلطة الارادة فتكون كالافعال المنعكسة تصدرها الملكة والعادة غير مراقبة نفعًا ولا مراعية مصلحةً ولا يزال أثرها قائمًا حتى تلاشيها الملاشيات الخارجية تدريجًا

حب الذات فطرة للمرء نشأ عليها بناموس بقاء الانسب فنشأت معهُ والبيئة والاحوال الاجتماعية التي تحيط بهِ تأثير في قوتها وضعفها فحيث ثقفّها التهذيب وهذّبتها التربية ظهرت وهي اعظم فائدةً واعم نفعًا وان أهمل فيها التهذيب والتثقيف خرجت عن حدها المحدود ورمت بصاحبها في مهالك الطمع والحسد . وبها ثبت التنازع في العالم وبسقت اصولهُ ولا بدَّ لها من قسطاس مستقيم ووازع قوي يقف بها عند حدها ولا يطلق منها الاَّ ما تقتضيهِ المصلحة وتصلح بهِ الهيئة الاجتماعية والتمدن الحقيقي وذلك الوازع هو الحاكم ولا بدَّ لهُ من سلطة منفذة وشريعة قانونية تقيم العدل على اساطينهِ وتكفل لذويها السعادة بالعدل . والشريعة قيد من قيود الانسان وحد يقف عندهُ دون التهور في اعمالهِ تمنعهُ من الافراط والتفريط وقيام ذلك يكون بافراد من الامة استكملوا المناسبات وحصلوا محبة المحبين ووجهة المتجهين فأخذوا باطراف العصبية عن اهلهِ وسقوا من رحيقها فدالت لهم الدولة واخذوا بيمن الصولة

اذا استحكمت الرئاسة ورسخت الدولة فاما ان تكون قواعدها متأصلة على أساس من العصبية او تكون ثابتة بالقوة والغلبة فان كانت الاولى دامت الدولة بدوام عصبيتها فجمع بها الشتيت وقوي الضعيف وسارت في طريق مهيع ونجد لاحب حتى اذا شيبت باستبداد وظلم وغلبة وقهر لوت على عقبها واضمحلت عصبيتها شيئًا فشيئًا الى ان تقوم عصبية أخرى اقوى واخص فتجمع الشارد وتضم المتفرق وتحفظ كيانها وقوتها. ببعثها الى ذلك حياة في مجتمعها ونهضة منها للم شعثها فتتآخى على نقض القوة الاستبدادية والسلطة الظالمة حتى تعود فائزة ظافرة مستأثرة بالسلطة اذا جمعت اليها شروط الرئاسة كما دلنا عليه التاريخ وشهدت لنا مسودة العراق لقطع ظلم الامويين. والاَّ هجعت في مهاد القهر واستسلمت لضرع الاستكانة في لبوس الذلة حتى تستثيرها او غيرها نهضة أخرى والظلم لا يدوم لكن الهاجعين مختلفون بين من اعترته سنة خفيفة وهجعة ضعيفة يتنبه بادنى متنبه لم يلاقِ من الاستبداد غير نفحة لم تذهب منهُ بروح الاستقلال وبين من هو في سبات عميق لا يوقظهُ غير وخز السيوف ورث الذل والف الاستعباد خلفًا عن سلف حتى لم يبقَ لهُ من روع استقلاله نفحة

وان كانت الدولة قائمة بالقوة والغلبة فان سلكت نهج العدل وصراطهُ وقربت لمحكوميها منافعهم وقامت بمصالحهم قيام الناصح الساهر أخذت منهم عصبية قوية ونعرة وحمية ترسخ بها قواعدها وتحفظ شواردها ان لم تزاحمها عصبية أخرى اقوى منها ولا تزال قائمة ما دام العدل والانصاف سائدين فتتأصل العصبية او يشاب حكمها بالاستبداد فينتكث فتلها وتعود من حيث اتت كما اجزتنا به سلطة الناجم وزنجيهِ في العراقين

سمعنا ان دولة بني العباس التي قامت بالعصبية وقويت بالنعرة لما قلَّ اثرها في الامة وتسلط عليها ثلة من الاعاجم ساموا الرعية مواقع الجهد والنصب والعناء والوصب ضعف صوت الدولة وقلت سطوتها فتناهبتها ملوك وطوائف من فاطميين وحمدانيين وبويهيين وان شئت قل عرب وعجم وترك وديلم ولكن بقي فيها حفظ للاساس ومحافظة على الراس ونعرة لبني العباس ولما طال الامد عصفت بذلك الرأس عاصفة بعد ان انهكتهُ الاسقام وصفرتهُ الايام فجلتهُ عن بغداد واطاحتهُ الى ارض مصر حيث فنيت عصبيتهُ وذهبت نعرتهُ ولم يبقَ لهُ غير شبهة دينية ومقاصد سياسية تجيش في صدور ملوك مصر تطلبًا للميزة على غيرهم من ملوك الاسلام

فالعصبية اذًا روح سائرة تطرأ عليها الشدة والضعف والقوة واللين فاذا افرطت في مذهبها وطغت في مجراها اضرت بما فوقها من جنسها ضررًا يأخذ بابنائها طريقًا هو بالطمع اشبه فيصمون عن النظر في عصبيتهم العالية التي هم احوج اليها في حياتهم وحفظ كيانهم كما جرى لملوك

الطوائف والاندلس حيث ملكتها الذلة وحكم عليهم عدوهم واقتنصهم دولة دولة وطائفة طائفة وكما كانت غرناطة واعدارُها الاسبانيول على ابوابها يحصرونها وهي احوج ما تكون الى عصبية تضم اجزاءها لتدرأ عنها شر المهاجم كانت منقسمة على نفسها وعصبية البازيين فيها تقاوم ضدها مقاومة اذهلتهم عن ان العدو في عقر دارهم ينازعهم استقلالهم ويهدم كيان دولتهم حتى سقطت دولتهم واُخرجوا من ديارهم طردًا وذهب ما كانوا يؤملون من الفوز على اخوانهم بل هلكوا وهلك اخوانهم وهلكت عصبيتهم الجائرة واصبح من بقي منهم تحت ضغط محكمة التفتيش اونة من الزمن ثم انجلوا بلباس الذلة وتشتتوا عباديد بكل مكان يندبون دولتهم و يكون استقلالهم مثلما حصل بقسطنطينية والفاتح على اسوارها واهلها في جدال ديني يقول معهُ بعض قسوسها ان أحب الامور اليهِ أن يرى تاج الفاتح في كنيسة آيا صوفيا ولا يرى قلنسوة راهب روماني

هذا الخلق الطاهر وذلك الاساس المتين اذا تجاوز حدهُ استجلب الذم من محافلهِ واستجلب الذل من حوافلهِ وهي العصبية التي نهى عنها النبي صلى الله عليهِ وسلم بقولهِ ليس منا من دعى الى عصبية وامثال هذا من الآثار النبوية بهذا الشان . كان ذلك منهُ والامة العربية متفرقة اسرًا وافخاذًا وعشائر وقبائل تضم كل فريق عصبية قوية تنازع جاراتها والامة العربية اذ ذاك متهيئة لنهضتها من كبوتها متحركة للقيام من غفلتها بفضل ذلك الاصلاح الكبير الاسلامي تستعد لملك العالم والقبض على السلطة العامة في الجمهور والتي يتم لها ذلك دون ان تكون العصبية الملية والجامعة الامية اول العصبيات لديهم اهمية واعزها موقعًا واكبرها مقصدًا وان يكون الافراط في ما دونها مما يوقف من نموها مذمومًا منهيًّا عنهُ بما نطق بهِ الحديث ونهى عنهُ الوازع الكريم صلى الله عليهِ وسلم . ما الذي انتجتهُ العصبية المذهبية التي أسسها العابثون بدولة العباسيين بين السنَّة والشيعة ان ولج العدو دارهم فاذهب عزهم واباد صولتهم وتركهم عباديد وهم في مثل تلك الحال ما انفكوا في تنازع لا يستفيقون ولا يرعوون قد اوهى افراطهم في مذهبيتهم وغلوهم فيها وطنيتهم فاذهبها ومحا رسمها وهلكوا بهلاكها وذهب عن العراق وخبت نار بغداد ولله الامر

العصبية اما ثابتة واما مستقرة تأصلت في الاخلاق بحيث اصبحت ملكة في النفس او انها وقتية غير ثابتة بل هي مدارة للمصلحة وجودًا وعدمًا ولا شك ان اولاها اعلى وامتن مبدأ وغاية لان الدائر مدار المصلحة منتفٍ بانتفائها وربما انقطعت المصلحة فتنعدم العصبية ويذهب اثرها ونفعها وبغير هذا الدائم الخلقي فانهُ دائم بدوامها ولئن ضعفت بضعف اسبابها فان للنعرة هبَّة تستثيرها ما دام لصاحبها عرق ينبض (ستأتي البقية)